الجنس المقدّس في حضارات الشرق الأدنى القديم وفي العهد القديم

القس عيسى دياب

مقدمة

الفعل الجنسي سر من أسرار الكون، فهذه القوة إذا تسلطت على الإنسان، ذكراً وأنثى، سلبته إرادته وأسلمته لغريزته، وإذا تسلطت على الحيوان وآن أوانها، اندفع ذكرُها نحو أنثاها، والعكس في بعض الحالات، بشراهة. كان الجنس سراً من الأسرار الطبيعية التي استوقفت الإنسان.

تُحدث العلاقة الجنسية حَبَلاً وولادة؛ إنه خلق، والخلق من خصوصيات الآلهة، والإنسان بحاجة إلى الكثير من النسل، في البشر والطرش، والخصب في المراعي والأراضي الزراعية، لذا أُدخل الجنس في إطار "المقدس" لأنه وسيلة الآلهة للخصب. وظهرت، في الشرق الأدنى، الميثولوجيات التي تصور لنا العلاقات الجنسية بشكل طقوس دينية. ولأن العهد القديم في الكتاب المقدس، تكوَّن في الإطار الحضاري لهذه المنطقة، نجد فيه أثراً لطقوس الخصب أو "الجنس المقدس". لذلك، فإننا نعالج هذا الموضوع تحت عناوين ثلاثة: (١) جذور الجنس المقدّس في تاريخ الأديان، (٢) الجنس المقدّس في ديانات الشرق الأدنى القديم، و(٣) الجنس المقدس في الكتاب المقدس، وخاصة العهد القديم.

أولاً: جذور مفهوم الجنس المقدس في تاريخ الأديان

منذ القديم، قدس الإنسان الفعل الجنسي واعتبره أمراً من خصوصيات الآلهة. ففي الفعل الجنسي، يتجاوز الإنسان واقعه الزماني والمكاني ليدخل في حالة فردوسية أقرب ما تكون من السعادة المتناهية. يظن فراس السواح أنه "لم يكن الفعل الجنسي متعة فردية ونشاطاً شخصياً معزولاً، بل طقساً يربط الإنسان المتناهي بالملكوت اللامتناهي، عبادة يكرر فيها الفرد، على المستوى الأصغر، ما قامت به القدرة الخالقة على المستوى الأكبر"[١]. فالفعل الجنسي متعة فردوسية، وواسطة خلق، ووسيلة خصب. تُظهر الأعمال الفنية التشكيلية المكتشفة، والتي تعود إلى العصر الحجري، قدسية الدافع الجنسي والقيمة الدينية للممارسة الجنسية. ويخبرنا عالم الآثار المعروف جاك كوفان (Jacques Cauvin) بأن تماثيل تعود إلى الألف التاسع ق.م. وصلتنا وهي تمثل أزواجاً متعانقين في أوضاع جنسية. وتعبر هذه التماثيل عن قيم جنسية ودينية مرتبطة بمعتقدات ذلك العصر[٢].

كانت طقوس الخصب أو "الجنس المقدس" أو "الزواج المقدس" في صميم ديانات الشرق الأدنى القديم. فقد عثر المتخصصون على طقوس، كانت تمارسها "البغايا المقدسات"، اللواتي سُمِّين أيضاً "المكرسات" (ق د ي ش و ت)، في معابد الآلهة المتعددة، وطقوس أخرى كان يمارسها الملك مع الملكة، أو الإلاهة أو رئيسة "المكرسات"، في ليلة رأس السنة. وتطلعنا بعض القصص الميثولوجية، في هذا المضمار أيضاً،

(١) فراس السواح، **لغز عشتار** (دمشق: دار علاء الدين، الطبعة الخامسة ١٩٩٣) ١٧٨.

(٢) CAUVIN Jacques, *Les premiers villages de Syrie-Palestine.* (Lyon: Maison de l'Orient, 1978) 118.

على "دورة الأله" الذي يموت ويعود فيقوم، وفيها دلالة على موت الطبيعة في الشتاء وقيامتها في الربيع.

تعلمنا منهجية "تاريخ الأديان" أن كل طقس ديني إنما نشأ من حاجة حياتية واجهها الإنسان، وكان يجهل مسبباتها، فأسندها إلى الغيب. كان همّ إنسان منطقة الشرق الأدنى، الصحراوي والجاف عموماً، كثرة الولادات، في البشر والحيوانات الأليفة التي كان يعيش منها وبمساعدتها، والخصب في الزراعة عندما انتقل الإنسان من مجتمع الصياد إلى محتمع الراعي. بكلام آخر، هو الخصب على جميع الصعد: في البشر، في الطرش وفي الزرع. نشأت حاجة الإنسان في الخصب البشري من المجتمع القبلي، فالقبيلة الأكبر هي التي تغلب وتسيطر. وعندما ظهر المجتمع الزراعي، كانت العائلة أو العشيرة أو القبيلة تحتاج إلى من يعمل في الأراضي الزراعية، بالإضافة إلى الحيوانات الأليفة التي كان يدجنها ويستخدمها في أعماله. أما الحاجة إلى الخصب في الطرش، فقد نشأت عندما كان المجتمع الإنساني يمارس رعاية المواشي وكانت تربية الماشية هي المصدر الرئيسي لحياة الإنسان، فكان هذا يشرب حليبها ويأكل لحمها ويلبس من صوفها بل والخيمة التي يعيش فيها كانت مصنوعة من شعرها.

لذلك، فقد كان الإنسان يحتاج إلى الكثير منها. وعندما دخل الإنسان في طور المجتمع الزراعي، وأصبحت حياته مرتكزة على إنتاج الأرض، نشأت الحاجة إلى خصب الأرض. لذلك، فقد أخذ موضوع "الخصب" جل اهتمام الإنسان القديم. لم يكن الإنسان يستطيع أن يفسر "سر" التكاثر، ولا أسباب وفرته أو تدنيه أو عدمه (العقم). وكل ظاهرة طبيعية لم يستطع الإنسان أن يفسرها، حباها إلى المجال الديني: الإله هو الذي يسبب "التكاثر" في عالم الإنسان والحيوان والنبات. وهو الذي يقلله، يكثره أو يمنعه كلياً. من هنا، أخذ "الخصب" طابعاً دينياً وانتمى إلى المقدس. ولأن موضوع الخصوبة طويل ومتشعب، فإننا نحصر اهتمامنا، في هذه المقالة، بـ"الخصب" البشري الذي يوصلنا إلى موضوع "الجنس المقدس". ولما تقدم الإنسان فكرياً وطرح على نفسه السؤال الفلسفي التقليدي حول مصدر المخلوقات، كان الفعل الجنسي، الذي "يخلق"، جزءاً من الجواب. كما وأنه كان يوجد طقس آخر للخصب هو دورة موت وقيامة الإله، كدورة آدونيس مثلاً، إلا أن هذا خارج عن نطاق الدراسة.

إذاً، نشأت طقوس "الخصب" البشري من حاجة حياتية. فلم يكن يخفى على الإنسان، منذ انفطر على الحياة، أن الحبل والولادة يأتيان بفعل العلاقة الجنسية بين رجل وامرأة. ولأن فعل "الخصب" بحد ذاته عمل جيد، ديني، مقدس، فالفعل الذي يسببه يجب أن يكون أيضاً مقدساً. ولأن رئيس القبيلة، والملك في عصر الملكية، هو المسؤول عن الرفاه الاقتصادي لرعيته، لذلك فمسلكيته تؤثر على وضع شعبه. و"خصبه" إشارة إلى خصب الرعية. ومع تطور الفكر الديني، أصبح الفعل الذي يقوم به الملك ليخصب عائلته الملكية (العلاقة الجنسية مع الملكة)، هو فعل مقدس إذ هو يحرك عمل آلهة الخصب أو هو يجسد عمل هؤلاء. وفي وقت لاحق دخل الفعل الملكي في صميم الحياة الدينية، وصيغت له طقوس خصوصية، وثبتت له مواسم محددة تقام فيها هذه الطقوس. يقول كريمر، من كبار الاختصاصيين في الحضارات السومرية: "فقد كان من واجبات الملك الباعثة على السرور أن يتزوج من إلاهة الخصب والإنجاب، ذات الشهوة الطاغية والعواطف الهائجة، ألوهية الفتنة التي تتحكم بإنتاجية الأرض وخصوبة الرحم في الإنسان والحيوان، لكي يضمن لشعبه السعادة والرفاه والكثرة العددية"[٣].

ثانياً: طقوس الجنس المقدس في ديانات الشرق الأدنى القديم

يُقسم الشرق الأدنى القديم عادة إلى أربع مناطق: مصر والجزيرة العربية

(٣) كريمر، **طقوس الجنس المقدس عند السومريين**، ترجمة نهاد خياطة (دمشق: دار علاء الدين، الطبعة الثانية ١٩٩٣) ٧٧.

ومناطق الساميين الغربيين (كنعان) ومناطق الساميين الشرقيين (بلاد الرافدين). ونقتصر كلامنا في هذه الدراسة على القسمين الأخرين من الشرق الأدنى: بلاد الرافدين وكنعان.

تأتي ديانة الخصب في بلاد الرافدين في إطار طقوس "الجنس المقدس" أو "الزواج المقدس"، والبَطَلان هما "دموزي"، الملك – الراعي، الذي عُرف في العهد القديم باسم "تموز" (حز ٨: ١٤)، والنموذج البارز للإله الميت القائم من الموت، وزوجته "إينانا"، التي عُرفت، في الديانات الكنعانية، باسم عشتار. وانتشر هذا الطقس في سوريا الفينيقية تحت إسمه اليوناني "أدونيس"، وفي مصر تحت إسم "إيزيس وأوزيريس".

١. طقوس الجنس المقدس في بلاد الرافدين

لعبت الطقوس والشعائر دوراً هاماً في ديانات بلاد الرافدين، حيث كانت المعابد مراكز للصلاة وإقامة هذه الشعائر، وكان فيها كهان وكاهنات ومنشدون وعازفون وخصيان وبغايا مقدسات. كانت تقام الصلوات والشعائر ضمن نظام محكم ورزنامة سنوية. وأهم المواسم هو "ظهور القمر الجديد"، وبهذه المناسبة كانت تقام طقوس خاصة تختتم بـ"الزواج المقدس"، حين يتزوج الملك من الملكة أو من إحدى الكاهنات المكرسات. وفي الحالة السومرية مثلاً، يصبح الملك، بـ"الزواج المقدس"، متّحداً بالإله "دموزي"، والكاهنة المشاركة بالإلهة إينانا، إلاهة الخصب والتناسل.

يخبرنا صموئيل كريمر (Samuel Cramer)، كبير المتخصصين في "السومريات": "ظل يُقام الاحتفال بطقس الزواج المقدس وسط أجواء من الابتهاج والحبور في جميع أنحاء الشرق الأدنى القديم طوال ألفين من الأعوام تقريباً"[٤]. ثم يضيف كريمر أنه، بعد انقضاء ألف سنة على أيام الإله السومري دموزي، اي حوالى سنة ٢٠٠٠ ق. م.، كان على ملك سومر أن يصبح زوجاً للإلاهة إينانا. كان الملك، عند قيامه بطقس الزواج المقدس، يعتبر نفسه الإله دموزي مجسداً[٥]، وبالتالي، فالملكة أو الكاهنة "المكرسة" هي الإلهة إينانا مجسدة. وعندما كان الملك يمارس طقس الزواج المقدس مع الملكة أو الكاهنة المكرسة، ويتّحد معها في غمرة الجنس المقدس، وكأن الإله دموزي، عندما يتحد والإلاهة إينانا، يحركان دينامية الخصب في رعية الملك من البشر والبهائم والزروع، فتتكاثر الولادات بين البشر والحيوانات، وتخصب المراعي والأراضي الزراعية.

كان يسبق الاحتفال بطقس الزواج المقدس عادة التودد والمغازلة تمهيداً للاتحاد المقدس بين الزوجين الملكِيَيْن الإلَهِيَيْن. في هذه المقدمة، يوجه كل من الزوجين للآخر كلام الحب والوله والغرام، ولا تخلو الأقوال من الصور الإيروتيكية الشاعرية. والغرض هو تهيئة الشريكين نفسياً وفيزيولوجياً للاتحاد الشديد، بل للذوبان الواحد في الآخر لكي يعطي الطقس المقدس مفعوله في المملكة. في هذه المقدمة، يأخذ الملك المبادرة، وفي بعض الأحيان تبدي شريكته تمنعاً، وبل تفضيل شخص آخر عليه. وهنا عليه هو أن يُظهر براعته في اجتذابها وإقناعها. ثم يشرع الكاهن في القيام بطقوس التطهير الأولى قبل أن يبدأ الاحتفال بالزواج المقدس.

في قصائد الزواج المقدس[٦]، يدعو الشريك شريكته "شقيقتي"، وتدعوه هي "شقيقي". تدعى الشريكة "العذراء"، أي "المكرسة" التي رهنت حياتها

(٤) كريمر، **المرجع نفسه**، ص ٧٧.

(٥) كريمر، **المرجع نفسه**، ص ٩٤.

وجسدها للجنس المقدس في الهياكل. وربما هذا أثر الحقبة القديمة التي كان يجوز زواج الأخ بأخته، كما كان يحدث بين المصريين خاصة في السلالات الملكية.

لا نعرف بالضبط كم مرة في السنة ومتى كان يُقام احتفال الزواج المقدس، غير أننا متاكدون من أنه كان يُقام ليلة رأس السنة في الهيكل أم في بلاط الملك. وينقل لنا كريمر صورة عما كان يجري:

"أولاً، يُقام سرير من الأسل والأرز، يُمد عليه غطاء أو لحاف أُعِدَّ خصيصاً لهذه المناسبة. ثم تستحم إينانا بالماء والصابون، تتمدد بعدها على الفراش. وعندئذٍ يسعى الملك إلى الحضن المقدس، ورأسه مرفوع، على أرض رُشَّت بزيت الأرز العطر، ثم ينام مع الملكة تغمره نشوة وسعادة. في اليوم التالي، تُقام مادبة في قاعة الاستقبال الكبيرة في القصر، فيكون كثير من الطعام والشراب والموسيقى والغناء فيما يمر الناس أمام الزوجين الإلهيين الجالسين جنباً إلى جنب على العرش"(٧).

يتضمن هذا الطقس أغاني وأناشيد وحركات طقسية يقوم بها الكهنة الذين يتولون ترؤس هذا الاحتفال المقدس. وفي بعض الأحيان توجد تقدمات من الحبوب والنبات وذبائح حيوانية. كان الزواج المقدس مناسبة فرح وطرب وبهجة، تتضمنه الأغاني والأناشيد الأهازيج مصحوبة بالآلات الموسيقية، الهدف منها الوصول إلى نشوة النفس والانخطاف الروحي.

٢. طقوس الجنس المقدس في كنعان

من الصعب وضع حد فاصل بين ديانات الساميين الشرقيين (ما بين النهرين) وديانات الساميين الغربيين (كنعان) لأن كثيراً من المفاهيم الدينية كانت مشتركة ولربما الاختلاف هو فقط في أسماء الآلهة.

من أهم المفاهيم المتعلقة بالخصب في كنعان تأتينا من مصدرين: الديانة الأوغاريتية والطقوس المتعلقة بالإلاهة عشتار. لكن الديانة الأوغاريتية المتمحورة حول الأله هدد، إله العاصفة والمطر، تتكلم عن خصب الزراعة حصراً، لذلك سنصب اهتمامنا على ديانة عشتار التي هي رمز كبير لديانة وطقوس الجنس المقدس.

حول تأثير المجتمع الأمومي وعلاقته بـ"الجنس المقدس، يخبرنا مؤرخ الإديان المشهور جيمس فريزر (James Frazer) أنه "في بابل وفينيقيا لم يستطع الرجل، وحتى فترات متأخرة جداً من تاريخ المجتمع الذكري هنا، أن يضع، تحت وصايته، حياة المرأة الجنسية قبل الزواج. فكانت بكارة المرأة ملكاً للإلاهة عشتار، لا لزوجها المقبل. وكانت تهب عذريتها في المعبد حيث تمارس الجنس المقدس تحت رعاية الإلهة قبل أن تلتزم الحياة الزوجية"(٨).

في قصيدة مشهورة، تقول عشتار، الإلاهة الكنعانية عن نفسها:

"أنا الأول، وأنا الآخر. أنا البغي، وأنا القديسة. أنا الزوجة، وأنا العذراء. أنا الأم، وأنا الإبنة. أنا العاقر، وكثر هم أبنائي. أنا في عرس كبير، ولم أتخذ زوجاً. أنا القابلة ولم أنجب أحداً. وأنا سلوة اتعاب حملي. انا العروس، وأنا العريس. وزوجي من أنجبني. أنا أم أبي، وأخت زوجي، وهو من نسلي"(٩).

تختصر هذه القصيدة القصيرة شخصيات احتفال الزواج المقدس في

(٦) كتاب صموئيل كريمر الذي نعود إليه مراراً في هذه المقالة ما هو إلا مجموعة قصائد شعرية تصف المشاهد التحضيرية والمشاهد العاطفية، وتبرز الكلام الذي يوجهه الشريكان بعضهما إلى بعض أثناء قيامهما بطقس الزواج المقدس.

(٧) كريمر، **المرجع نفسه**، ص ١١٦.

(٨) FRAZER James, *The Golden Bough*، نقلاً عن فراس السواح، **لغز عشتار**، ص ٤٠.

كنعان بشخص عشتار، فتجعل الزواج المقدس سراً من أسرار الطبيعة، وتخلط الزواج بالألوهة فتصبغه بالمقدس. وتكشف لنا طبقة عميقة من طبقات الديانة المتراكمة في الشرق الأدنى، عندما كانت الألوهة الأنثوية هي السائدة والمسيطرة. وترافق هذا مع وجود مجتمع أمومي تسيطر فيه المرأة على الرجل في العائلة والمجتمع. في المجتمع الأمومي، تسلمت المرأة القيادة، ليس لتفوقها البنيوي بل لقواها السرية: الجاذبية الجنسية والإنجاب. ولأن هاتين الملكتين سريتان، اكتسبتا طابع الألوهة. لم يستطع أحد أن يفسر اللذة الجنسية بعبارات علمية، ولا أن يمسك بكل أعماقها وأبعادها الإنسانية الراقية، فوضعها الإنسان القديم في مصاف الصفات الإلهية. وهكذا كانت المرأة الإلاهة الأولى والكاهنة الأولى والملكة الأولى والأم الكبرى. إنها المنتج، فهي تنجب، ومؤمن الطعام، فهي ترضع. وصورت أعضاؤها التناسلية على أنها مقدسة، وعبدت. بل وأقدم التماثيل التي اكتشفت هي مجسمات مضخمة لأعضاء المرأة التناسلية وهذا ما يدل على أسراريتها ورمزيتها وطابع الألوهة المسكوب عليها. يصف فراس السواح التماثيل الأولى التي اكتشفت للإلاهة عشتار على الشكل التالي:

"أما المنطقة الأساسية في كل تلك التماثيل، فمنطقة الثديين والبطن والحوض وأعلى الفخذين، التي تشكل معاً كتلة ممتلئة عني الفنان بإظهار وتضخيم كل جزء فيها بطريقة تبدو معها بقية الأعضاء وكأنها رسمت لتظهر ما لهذه الكتلة من أهمية قصوى. فالثديان عبارة عن كتلتين هائلتين مستديرتين، والبطن منتفخ في إشارة لحمل أبدي، والردف ثقيل، والوركان قويان بارزان، ومثلث الأنوثة منتفخ يشكل مع أعلى الفخذين وحدة متماسكة. وقد يتدلى الثديان ليشكّلاَ مع البطن والوركين تكويناً واحداً متراصاً تتجمع فيه هذه الرموز في بؤرة واحدة هي مستودع الخلق"(١٠).

وهذا يرينا أنه، بعد أن ألّه الإنسان الكواكب والظواهر الطبيعية، كالبرق والرعد والمطر، ألَّهَ العناصر في جسد المرأة التي هي مصدر اللذة "السرية" و"الغامضة"، ومسبب الخصب والولادة اللذين يجهل الإنسان كنههما. وفي الأشكال التي اكتشفت للإلاهة عشتار، يثبت الفنان كل ما له علاقة بالخصب: الحبل والولادة. وهكذا عبَّر الإنسان عن خلاصة تأملاته في القوة الإلهية التي تصدر عنها الأشياء دون قدرة البشر. هناك قدرة إلهية تبدو كأم وأنثى كونية متطابقة مع نظام الخصب في الطبيعة الطبيعة. وكما كان "زرع" الإله هدد (المطر) يخصب الأرض (الأم الكبرى)، بنفس الصورة كان زرع الإله يُلقى في "وعاء" عشتار ليشكل دينامية كونية للخصب بين البشر والبهائم.

كما وجد الإنسان في الأرض تجسيداً للأم الكبرى، وجد في القمر أماً "سماوية"؛ الأرض أم الدائرة الأرضية، والقمر أم الدائرة السماوية. وكما كانت عشتار الأم الأرضية، صار القمر (مؤنث) الأم السماوية. وصارت العلاقة بين عشتار والقمر، وصار القمر معبوداً مع عشتار. لكن القمر أصبح في ما بعد مذكراً، وأصبح القمر هو الذي يخصِّب الأرض بالمطر، والنساء وأنثيات البهائم بطريقة سرية. وإلى جانب مسؤوليتها عن حمل النساء، فإن الأم القمرية ترعى حياة النساء الحوامل وتكون حاضرة فوق سرير الولادة لتسهيل عملية الولادة، كما كانت نساء بابل يدعين عشتار وهن على فراش الوضع. وما أكثر القصص الشعبية التي تتحدث

(٩) ROBINSON James, *The Nag Hammadi Library* (San Francisco: Harper and Row, 1981). ، نقلاً عن فراس السواح، **لغز عشتار**. ص ٧.

(١٠) فراس السواح، **المرجع نفسه**، ص ٤١-٤٢.

عن العلاقة بين القمر والنساء لجهة الحمل والولادة. وعن ذكورة وأنوثة القمر، يخبرنا السواح: "كان أهل حران في سوريا يقولون إن الشعوب التي تعتقد بأنوثة القمر وتعبده في هذه الصفة، تسلم قيادها لنسائها، أما الشعوب التي تعتقد بذكورة القمر وتعبده في هذه الصفة فإن لرجالها الغلبة على نسائها"(١١).

كنا قد أشرنا أعلاه إلى اكتساب الفعل الجنسي، في وقت سحيق في القدم، قيمة دينية. وكان الاحتفال الديني، في بعض جوانبه، مناسبة يظهر فيها البشر هذه "القيمية الدينية" بممارستهم الجنس المقدس مع البغايا المقدسات، "المكرسات"، في المعابد. فالبغاء المقدس هو ممارسة الجنس بين أطراف لا يجمعهم رابط شخصي، ولا تحركهم دوافع شخصية تتعلق بالإنجذاب أو بالإنجاب، بل هو ممارسة جنسية مخصصة لتقديس هذه الطاقة الخارجة عن الدنيوي إلى الإلهي. وكانت عشتار هي البغي المقدسة بامتياز التي تشحن الرجال والنساء بالطاقة الجنسية وتدفعهم إلى بعض في فعل عبادة لامتناهية. تقول عشتار البابلية عن نفسها: "أنا العاهرة الحنون"(١٢)، و"أنا من يدفع الرجل إلى المرأة ويدفع المرأة إلى الرجل"(١٣). نقرأ في نص ترتيلة بابلية موجهة إلى عشتار:

"لك الحمد، يا أرهب الإلاهات جميعاً – لك الإجلال يا سيدة البشر وأعظم الآلهة – يا موشحة بالحب والمتعة – تفيض طاقة وسحراً وشهوة – شفاهها عذبة وفي فمها الحياة – ظهورها ينشر الفرح والابتهاج – بيدها مصائر الأشياء جميعاً ..."(١٤).

وفي ملحمة جلجامش، تقع الإلاهة في حب البطل نصف الإله العائد من معركته مع وحش الظافرة غابة الأرز وتعرض عليه وصالها:

"تعال يا جلجامش وكن حبيبي – هبني ثمارك هدية – كن زوجاً لي وأنا زوجاً لك".

ثم يجيب جلجامش:

"أي حبيب أخلصت له الحب إلى الأبد؟ وأي راع لك أفلح يرضيك على مرّ الأزمان؟ تعالي أفضح لك حكايا عشاقك ـ على تموز زوجك الشاب – قضيت بالبكاء عاماً بعد عام".

ثم يعدد العشاق الذين ركضت وراءهم، ثم عندما حصلت عليهم خانتهم وتركتهم لتذهب إلى آخرين(١٥).

وبالاختصار، كان الإنسان القديم، في كنعان وبلاد الرافدين، يلبي نداء الطاقة العشتارية ويرفدها بفعله الجنسي الخاص، من خلال ثلاثة أشكال من الممارسات الجنسية: الممارسة الجنسية الفردية بين شريكين يربطهما رباط مؤقت أو دائم، ممارسة طقوس الجنس الجماعي في المناسبات والاحتفالات الدينية، وممارسة "الجنس المقدس" في معابد عشتار، الأم الكبرى.

ثالثاً: الجنس المقدس في العهد القديم

كثيراً ما لاحظ علماء الكتاب المقدس آثاراً من ديانة الخصوبة في عدد من أسفار العهد القديم. وبالرغم من تنديد الأنبياء بها، وبالرغم من كل مجهودات مراجعي النصوص لتطهيرها من كل أثر وثني، فما زالت آثار ديانة الخصب موجودة، وهي كمثل شبابيك تفتح لنا طاقات على

(١١) فراس السواح، **المرجع نفسه**، ص ٨٤–٨٥.

(١٢) HARDING M. Esther, *Woman's Mysteries* (New York: Harper and Row, 1976) 102.

(١٣) *Ibid.*, p. 159.

(١٤) PRICHARD James, *The Ancient Near East* (Princeton, 1975) V, I, pp. 231-2.

(١٥) فراس السواح، **ملحمة جلجامش** (بيروت: دار الكلمة، ١٩٨١) ٩٧–١٠٠.

الماضي السحيق للديانة الإسرائيلية القديمة. أضف إلى ذلك، أن الأنبياء لم يترددوا في اقتباس بعض الرموز من هذه الديانات. مثلاً، طلب الرب من هوشع أن يتزوج من امرأة زانية ليرمز بها إلى إسرائيل التي زنت على يهوه في ممارستها العبادات الوثنية. ثم إن الأوصاف المسندة إلى يهوه وإسرائيل، كزوج وزوجة في كتب الأنبياء، لهي خير دليل على وجود آثار لـ"الزواج المقدس" في الديانة الإسرائيلية (ر ج إر ٣ وهوشع). يخبرنا سفر حزقيال عن رؤيا دخلها النبي، فرأي نفسه في هيكل أورشليم ليجد "نساء جالسات يبكين تموز" (حز ٨: ١٤). وتموز هذا هو زوج وشقيق عشتار، إلاهة الخصب، التي أغرت وثم خانت زوجها وشقيقها. وبالرغم من إنكار المحافظين لهذه الحقيقة تبقى تنديدات الأنبياء بديانات الخصب ومعابدهم هي الشاهد على وجودها في إسرائيل.

١. المكرسات

كان يوجد في المعابد الكنعانية فتيات مكرسات للخدمة. وكانت خدمتهن تقضي، ولو جزئياً، بمنح أجسادهن للمترددين إلى هذه المعابد للقيام بطقس التوبة وطقس الخصب. وكانت المكرسات يخدمن في معابد ثابتة وبعضها متنقل. وربما قصة يهوذا وعلاقته بثامار كنته تحمل أثراً لهذه العادات الدينية (تك ٣٨). ويأتي الكتاب المقدس أيضاً على ذكر "المكرسين"، الذين كانوا شباناً وهبوا نفوسهم لممارسة اللواط في المعابد الوثنية. ويقبح النص المقدس هذه الممارسة ويحذر منها ويسمي ممارسَها "كلبا" (تث ٢٣: ١٨). وربما الإشارة في رؤ ٢٢: ١٥ إلى الزناة والكلاب والسحرة تتكلم عن حقبة كانت تمارس فيها طقوس الزنى المقدس (المكرسون والمكرسات) في المعابد الإسرائيلية.

ويذكر كاتب سفر الملوك الأول سبب سقوط سليمان الملك وتفكك مملكته: "فذهب سليمان وراء عشتروت إلاهة الصيدونيين" (١مل ١١: ٥). وينطبق الشيء نفسه على كثير من ملوك إسرائيل ويهوذا. ويرى بعض العلماء في قصة إبنة يفتاح أثراً لـ"المكرسات" في بلاد كنعان (قض ١١: ٣٤-٤٠).

كان "الجنس المقدس" منتشراً في إسرائيل ويهوذا خلال عصر المملكة المنقسمة (٩٣٠-٥٣٩ ق.م.). وظهر بكثافة في مملكة إسرائيل منذ الملك رحبعام الأول (٩٣٠-٩١٣) (١مل ١٤: ٢٤). ولم يحرم كلياً حتى عصر الملك يوشيا، المعرف بإصلاحه (سنة ٦٢٢ ق.م. ؟) (٢مل ٢٣: ٧). ويفيد المؤرخ المقدس بأن عديدين من ملوك إسرائيل ويهوذا كانوا يمارسون "الجنس المقدس" (١مل ١٥: ١٢؛ ٢٢: ٤٦). وكثير من الحالات التي أشار إليها المؤرخ المقدس كانت حالات "لواط مقدس" حيث كان يوجد شبان كرسوا حياتهم لممارسة الجنس في المعابد، ودعاهم النص المقدس "المأبونون"[١٦]. كان عصر آحاب (٨٧٤-٨٥٣ ق.م.) هو العصر الذهبي لممارسة طقوس "الجنس المقدس" في إسرائيل. تزوج آحاب من إيزابل بنت أتبعل ملك الصيدونيين. وأتت إيزابل بعبادة البعل والعشتروت كما كانت تمارس في بلدها. وكتب المؤرخ المقدس عن آحاب: "وعبد البعل وسجد له. وأقام مذبحاً في بيت البعل الذي بناه بالسامرة. وأقام آحاب نصباً للإلهة عشيرة..." (١مل ١٦: ٣١-٣٣). وكان موت آحاب، بحسب المؤرخ، تتميماً لنبوة، وربما مورست في موته ودفنه طقوس الجنس المقدس: "وحملوا جثته إلى السامرة ودفنوها هناك. وغسلوا مركبته في بركة السامرة، فلحست الكلاب دمه كما قال الرب، وفي الماء الملون بدمه اغتسلت البغايا" (١مل ٢٢: ٣٧-٣٨). يتكلم النبي هوشع عن ممارسة الجنس المقدس فيقول: "بناتكم يزنين وكنّاتكم يفسقن، فلا

(١٦) بحسب ترجمة فاندايك.

أعاقب بناتكم على زناهنّ ولا كنّاتكم على فسقهن. الرجال أنفسهم انفردوا بالزواني وذبحوا الذبائح مع بغايا المعابد. فالشعب الذي لا يتبين الحق يتهور" (هو ٤: ١٣-١٤؛ رج إر ٥: ٧؛ عا ٢: ٧-٨).

٢. صورة يهوه وشعب إسرائيل كزوجين

من الثابت أنه كان لكل الآلهة الوثنية خليلات، أو صاحبات، أما يهوه فلم يكن له، وهذا ما يميزه عن الآلهة الوثنية. لكن، نرى أن يهوه اتخذ من إسرائيل ليس مجرد خليلة أو عشيقة أو صاحبة، بل زوجة. ويخبرنا كريمر أنه، "وحتى أزمنة متأخرة، هي أزمنة الـ"مشنا"، أي تقريباً في نفس الأيام التي تم فيها اعتماد العهد القديم كتابا مقدساً، كان يُروى أن عذارى أورشليم كن يخرجن من خدورهن لدى اقتراب يوم الغفران وفي أثناء مهرجان الشجر، ويرقصن في الكروم. وكن يلاقين الفتيان وينشدن: أخرجن يا بنات صهيون وانظرن الملك سليمان بالتاج الذي توجته به أمه في يوم عرسه وفي يوم فرح قلبه (نش ٣: ١١)"[١٧]. وهذا أيضاً صدى متأخر لطقس الزواج المقدس الإسرائيلي القديم.

نجد في سفر إرميا صورة عن العلاقة الزوجية الحميمة بين يهوه وإسرائيل يرسمها الكاتب بعبارات بشرية (إر ٢: ١-٣):

"وقال لي الرب: إذهب ونادِ في أورشليم: هذا ما يقول الرب: اذكر مودّتكِ في صباكِ، وحبك في يوم خطبتك، سرت ورائي في البرية، في أرض لا زرع. إسرائيل مكرسة (ق د ش ه)[١٨] للرب، باكورة غلته في الشعوب، من أكلها يخطأ ويحل به الشر".

يبرز لنا سفر هوشع هذه الصورة بوضوح. في عصره (حوالى سنة ٧٥٠ ق.م.) تراجعت عبادة الله الواحد لتأخذ مكانها الديانة الكنعانية وطقوسها. عاش هوشع حالة شعبه عبر مأساة زوجية، وحبه لزوجته الزانية، التي كانت تستمر في الخيانة بالرغم من حبه لها، سبب له الألم الكبير. هذا الألم ما هو إلا صورة عن ألم يهوه تجاه إسرائيل الزانية الخائنة. لكن النبي لم يفقد الأمل بشفاء زوجته وعودتها إليه، ولذلك نراه يتملقها لتعود إليه. وهذه صورة لمحبة الله لشعبه، الذي، بالرغم من خيانته وذهابه وراء عبادة البعل والعشتروت، ما زال يأمل في رجوعه إليه وهو مستعد أن يسامحه على خيانته الكبيرة له.

ونذكر باقتضاب أن العهد الجديد أتى على ذكر طقوس "الجنس المقدس" سلباً وإيجاباً. فأتى بولس، في رسالته الأولى إلى كورنثوس، على ذكر هذه العبادات عندما كان يتكلم عن ماضي المؤمنين (ف ٦)، وعندما بحث الأمور المتعلقة بالمرأة في الكنيسة (ف ١١). ثم صور بولس المسيح والكنيسة كعريس وعروس: "فأنا أغار عليكم غيرة الله لأني خطبتكم لرجل واحد هو المسيح، لأقدمكم إليه عذراء عفيفة (٢كو ١١: ٢). في توصياته للزوجين، يشبه بولس علاقتهما الزوجية بعلاقة المسيح والكنيسة (أف ٤: ٢١-٣٣). وصورة المسيح العريس وكنيسته العروس هي الصورة الإسخاتولوجية البارزة في سفر الرؤيا.

٣. قصة نشيد الأناشيد

يُعتبر سفر نشيد الأناشيد في الكتاب المقدس من أهم المصادر البيبلية لطقس الزواج المقدس. لا يتضمن السفر، كغيره من أسفار العهد القديم، أية أخبار تاريخية أو تعاليم طقسية أو مواعظ نبوية. وما هو إلا مجموعة من أناشيد الحب الحسي، إذا قُرئت بالتسلسل يمكن أن تخيط لنا قصة حب أو رواية كانت تمثل في الاحتفالات الدينية. ولربما ترجع

(١٧) كريمر، **المرجع نفسه**، ص ١٣٢.

(١٨) تستعمل الكلمة "ق د ش ه" في العبرية للتعبير عن المرأة المكرسة في الهيكل الوثني إذ لم يكن يوجد مكرسات في المعابد الإسرائيلية.

اصول القصة إلى طقوس احتفالات الزواج المقدس في سومر أو في الشرق الأدنى على وجه العموم. ويسأل سائل كيف تم إدراج هذا السفر، الذي تفوح منه رائحة العشق والهوى والشهوة والرغبة، في قانون الكتاب المقدس ووضعه إلى جانب أسفار موسى والأنبياء؛ وكيف قبل به الربيون اليهود كسفر مقدس وهم الذي يقدسون العفة والطهارة الجنسية والإخلاص الزوجي؟ إن ما دفعهم إلى القبول به كسفر مقدس هو برأينا، أولاً، قبول الكتاب شعبياً بصورة عامة تأييد الذاكرة الجماعية له على أنه نص مقدس، وربما تعرف عليه الإسرائيليون القدماء في ديانات أخرى تعرفوا عليها، ولما كانت القصة معتبرة طقساً مقدساً في هذه الديانات، استمر الإسرائيليون القدماء في اعتباره مقدساً بعد أن أزالوا منه طابع الوثنية وتعدد الآلهة. تماماً كما اقتبست أناشيد دينية كانت توجه إلى الإله إيل في كنعان أو إلى الإله أتون، رمز التوحيد المصري الشمسي. ثم أن كاتبه تقليدياً هو الملك سليمان، وهذا ما يتبناه الربيون في اليهودية الأرثوذكسية، والملك سليمان عندهم شخصية مقدسة مرموقة، وكل ما يُسند إليه من كتابات يجب أن يكون أدباً مقدساً. أضف إلى ذلك، ان كل الكتابات الأدبية، وفن الكتابة نفسه كان يعتبرها الإنسان القديم في حيز المقدس نظراً لندرتها ولسموها ولـ"أسراريتها". ولمعرفتهم لسليمان، لم يأخذوا سفر نشيد الأناشيد مما يطفو على سطحه من عبث وحسية، بل مما يعرفونه عن سليمان من عمق حِكَمي وديني. لذلك، صرفوا النظر عن النص الحرفي والظاهري، واهتموا بالمعنى الباطني والرمزي. فالعاشق في "النشيد" لم يكن ذلك الفتى العذب الثغر، الإبلي العين، الكثيف الشعر، المورد الوجنتين، بل كان يهوه نفسه. والحبيبة لم تكن تلك العذراء الجميلة، الجعداء الشعر، ذات الشفتين القرمزيتين، والمستوية الفخذين، كحُلي صاغتها يدَا صانع حاذق، بل هي شعب إسرائيل عروس يهوه وحبيبته وزوجته.

وحذا آباء الكنيسة حذو الربيين اليهود في اعتماد التفسير الرمزي لسفر "النشيد"؛ فبالنسبة إليهم ما العشيقان المولهان في السفر سوى رمز إلى المسيح والكنيسة، وأصحاب الشهود هم الملائكة في السماء والمؤمنون على الأرض. و"قُبَل الفم" رمز إلى توق الكنيسة للمس المسيح في أسمى مكان من جسمه، فالإضافة إلى حساسية الشفتين الكبيرة، من فمه كان يخرج التعليم المقدس.

وظل التفسير الرمزي لسفر "النشيد" مسيطراً حتى بدايات القرن الثامن عشر، عندما بدأت تظهر مدارس النقد التاريخي للكتاب المقدس. عندها بدأ العلماء يتمسكون بالمعنى الحرفي، فاعتبروا السفر بداية قصة حب بين الملك سليمان وفتاة فقيرة راعية. ومع تقدم علوم النقد التاريخي واكتشاف آثار بلاد الرافدين، وخاصة أناشيد الزواج المقدس، بدأ العلماء يُسندون جذور سفر النشيد إلى طقوس احتفالات الزواج المقدس. "ولعلنا لا نجد اليوم باحثاً كتابياً جاداً يرى في الكتاب غير تصنيفٍ لغنائيات ممتازة في العشق والغرام"[١٩].

ولئلا تتحول هذه الدراسة عن هدفها، أعود إلى موضوع الزواج المقدس في حضارات الشرق الأدنى القديم، لأرى إن كان لسفر نشيد الأناشيد علاقة به. إننا نستبعد كل النظريات التي لا ترى في السفر سوى أناشيد حب وغزل كانت تغنى في حفلات الزواج الشعبية. إن ضم هذا الكتاب إلى الأدب الديني المقدس، لهو خير دليل على "أصوله" المقدسة. إن ورود اسم الملك سليمان في "النشيد" لهو برهان قاطع على أن المناسبة ملكية. فكثير من الأحداث تدور في القصر. وكثير من العبارات الغامضة تشير إلى

(١٩) كريمر، **المرجع نفسه**، ص ١٢٧.

كون السفر طقس قديم. لهذه الأسباب وغيرها، نقبل رأي تيوفيل ميك القائل بأن "نشيد الأناشيد أو على الأقل قسماً كبيراً منه، صيغة معدلة ومتفق عليها عن ليتورجيا عبرية قديمة كانت ترتل بمناسبة زواج إله الشمس من الإلاهة – الأم، التي كانت ازدهرت عبادتها في بلاد ما بين النهرين منذ أقدم الأيام. كان هذا الزواج المقدس جزءاً من ديانة الخصوبة التي استولى عليها العبرانيون الرُّحَّل من جيرانهم الكنعانيين المتحضّرين الذين استمدوها بدورهم من ديانة عشتار –تموز الأكادية، وهي شكل معدل من ديانة إينانا – دموزي السومرية"[٢٠].

في "النشيد" توصف الحبيبة بـ "العروس" و"الأخت"، وهذان التعبيران يتماثلان من لقَبي عشتار الكنعانية وإينانا السومرية. وتسمية العاشق بـ"الملك" و"الراعي"، في "النشيد"، يماثلان لقبَي تموز الكنعاني ودموزي السومري.

الخلاصة

منذ القديم، أسند الإنسان الفعل الجنسي إلى "المقدس"، ووضعه في مصاف أعمال الآلهة إذ أنه، بالنشوة التي تصاحبه، ينقل الإنسان من مناخ أرضي إلى مناخ فردوسي. وعندما تطور الفكر البشري وركز في مسبب الخليقة، رأى في الحمل والولادة، التي هي من نتاج العمل الجنسي، عمل خلق. في طور الرعاية، رأى الإنسان أن خصوبة الماشية تساعده في حياته وتوفر له مصادر عيش كريم، لذلك رأى أن يُقحم الآلهة في تسهيل العمل الجنسي من أجل الخصب. وعندما انتقل الانسان إلى طور الزراعة وأصبح بحاجة إلى عدد وفير في عائلته للعمل في الحقول وللدفاع من المصالح الاقتصادية، كان موضوع خصب الأرض والإنسان مثار اهتمام من الدرجة الأولى. أما هذه الحاجات الحياتية، طلب الإنسان مساعدة الآلهة في موضوع الخصب، فصاغ طقوساً لـ"الجنس المقدس" وبنى معابد رتب لها عبادات. إن طقس الخصب، وبالتحديد "الجنس المقدس" جزء مهم من ديانات الشرق الأدنى القديم. الصورة البارزة في ديانات بلاد الرافدين هو طقس دموزي وإينانا الذي كان يحتفل به غالباً في رأس السنة، عندما كان الملك، مجسداً دموزي، يقوم بالعمل الجنسي من الملكة أو رئيسة "المكرسات" التي تجسد إينانا. وكان يعتقد أن هذا الاحتفال ينشط الطاقة الجنسية عند الانسان والحيوان والزروع من أجل خصب ونتاج وفير. انتشرت في كنعان ديانة عشتار، الأم الكبرى، فبُنيت لها المعابد التي "تكرس" فيها "المكرسات" (البغايا المقدسات) وصيغت لها طقوس لـ"الجنس المقدس".

وكون الكتاب المقدس، خاصة العهد القديم، نشأ في حضارة الشرق الأدنى القديم، أخذ كثيراً من صور طقوس "الجنس المقدس" وأتى، في نصوصه، على ذكر كثير من ممارساتها. لقد شبه يهوه نفسه بالزوج وشعبه إسرائيل بالزوجة. وكان الانبياء يحثون إسرائيل على البقاء في "الأمانة الزوجية" ليهوه. لكن الشعب "زنى" على يهوه، الذي أظهر محبة فائقة له وكان دائماً مستعداً أن يسامحه ويضمه إليه. لنا في قصة يهوذا وثامار كنته (تك ٣٨) وفي قصة ابنة يفتاح (قض ١١: ٣٤-٤٠) آثاراً لطقوس الجنس المقدس. ولعل سفر نشيد الأناشيد هو الصورة البارزة، في العهد القديم لتحويل طقوس "الجنس المقدس" من طابعها الوثني إلى طابعها التوحيدي، إذ أنها أصبحت قصة حب بين سليمان الملك وفتاة بسيطة، تماثل قصة حب نبيل بين يهوه وشعب إسرائيل. في العهد الجديد، يأتي بولس على ذكر عبادات "الجنس المقدس" التي انتشرت في كورنثوس (١كو ٦ و١١)، ويرسم صورة للمسيح والكنيسة كعريس وعروس (أف ٤: ٢١-٣٣). وتبرز هذه الصورة اسخاتولوجية خاصة في سفر الرويا.

(٢٠) MEEK Theophile, *The Song of Songs: Introduction and Exegesis* (Interpreter's Bible, Volume 5; Nashville: Abingdon, 1956).